رحلة أثرية وأدبية في طريق الإمام تركي ابن عبدالله بن محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الثانية رحمه الله :

تركي بن طلال بن عبدالعزيز *

لا أحد ينكر ما لقصص الرحلات من أثر على القارئ ، وما لأدب الرحلات البشرية من جاذبية تُسْتَمَدُّ من قدرة الكاتب على الغوص في مكنونات النفس البشرية .. ولكن ترى من هم الرحالة الناجحون في كتاباتهم : هل هم أولئك الذين يتميزون بتنوع ثقافتهم واهتمامهم وقدرتهم على وصف رحلاتهم ، وتحليلهم لمشاهداتهم وانطباعاتهم.. أم أولئك الذين لديهم رؤية يتحدد من خلالها منظارهم للحياة ، وهل ينقل الرحالة عَبْرَ تِرْحاله واستطلاعاته أموراً وقضاياً ومرئيات جديدة لم يَألفها مُجْتمعه - وربما يكون فيها خيرٌ لبلده - مُنبهاً لها ؟؟.. وهنا تتحدد ملامح كتابته ؛ فهل كان يرى الحياة بمنظار ثقافي ؟ أم سياسي ، أم أنّه ينظر إليها بمنظار ديني ، أم أنه يجمع هذا كله بمنظارٍ يرى من خلاله كلَّ تلك الجوانب مجتمعه ؟!.

* بكالوريوس علوم سياسية .
- تخرج من الكلية الحربية البريطانية "ساند هيرست" .
- تخرج من كلية طيران الجيش في ولاية الباما - الولايات المتحدة الأمريكية .
- يتابع دراسته العليا ، ويعمل رائد طيار في القوات الملكية السعودية والممثل الشخصي لسمو الأمير طلال بن عبدالعزيز .

وفي الغالب أن معظم مغامرات الرحالة قديماً وحديثاً كانت محفوفة بالمخاطر والإثارة ، وهي جهود أثْرَتْ بشكل عميق المعرفةَ في مجالات العلوم الإنسانية ، وحققت أهدافها بفضل الله ثم بفضل الإصرار والعزيمة وقوة الإرادة التي منحها الله سبحانه وتعالى الإنسان(١) .

يعود اهتمامي بالتاريخ والرحلات إلى ما بذره - منذ صغري في وجداني .. من حسن حظي - الوالد الأمير طلال بن عبدالعزيز : من حب للتاريخ عامة ، ولسيرة الملك عبدالعزيز رحمه الله بصفة خاصة .. كل ذلك من خلال مجالسه الزاخرة بالأحاديث والروايات التاريخية والمناقشات الفكرية التي يتبادلها مع نخب المجتمع العربي والرحالة العرب والأجانب من ذوي الخبرة والتجربة ، ثم بدأت تتشكل قناعتي بأن البحث في تجارب الأمم والأشخاص ما هو إلاّ رحلة مستمرة تؤثر في حياة المرء وفي تحقيقه لذاته .. يتعرف من خلالها على نقاط ضعفها بالاطلاع على ثقافة الآخر ومعرفة كيف يفكر ؛ فمن خلال الأسفار والرحلات الخاصة مع الأصدقاء ذوي الاهتمام المشترك يبدأ الأثر في ترك بصماته على شخصية المرء ؛ ليدرك في نهاية الأمر أنّ ما حصّله لا يعدو نقطةً وسط بحر من التنوع والاختلاف والثراء الإنساني .

ومن أبرز تلك الرحلات التي تركت أثراً في نفسي - وربما في نفوس رفاقي في الرحلة - تلك الرحلة بالسيارات إلى موقع غار الإمام تركي بن عبدالله في شهر صفر عام ١٤٢٢هـ (مايو ٢٠٠١م) ؛ ففي إحدى المناسبات التقيتُ بعددٍ من أبناء عمومتي ولفيف من الأصدقاء ، وازدان حديثنا بسيرة الإمام تركي ومآثره العظيمة ومواقفه البطولية التي ربما تخفى على كثير من أبناء هذا الجيل المنجرف في غياهب العولمة ومجاهلها .. على أية حال اتفقنا على زيارة غار الإمام ، واختلفنا حول توقيت السفر ، وهل يكون حالاً أم ننتظر

(١) انظر : محمود رداوي . **الرحلات وأعلامها في الأدب السعودي المعاصر** .- الرياض ، ١٤١٦هـ ، ص١٩-٢٠.

حلول فصل الشتاء ؛ إذ يصعُب السَفَر في أجواء الصيف الحارة ؟.. ومع ذلك غَلَب الرأيُ القائل بتعجيل السفر شوقاً منّا إلى محاولة رسم ملامح الظروف القاسية التي عاش فيها هذا الإمام البطل .

وقَبْلَ الدخول في تفاصيل الرحلة تجدرُ الإشارة إلى إعطاء لمحةٍ عن ذلك الرمز الخالد في تاريخنا الوطني الإمام تركي بن عبدالله بن سعود الحاكم السادس من آل سعود، ومؤسس الدولة الثانية بعد الغزوات التي تعرضت لها البلاد على يد الأتراك وجيوش محمد علي باشا والي مصر ، وهي التي تمكنَ الإمام تركي أثناءها - إبّان سقوط الدرعية في عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) - من الإفلات من يد الغزاة ؛ ليعود لمبايعة مشاري بن سعود بالحكم والوقوف إلى جانبه بعد مغادرة إبراهيم باشا .. وعندما غيّر محمد بن معمر ولاءه وانقلب على مشاري بن سعود انطلق تركي من بلدة الحائر ، واتجه إلى ضرماء ، ومنها إلى الدرعية والرياض ، وقضى على حكم ابن معمر؛ فداء لابن عمه مشاري بن سعود الأسير(١).

وعلى الرغم من توالي الحملات التركية المصرية فإنها فشلت في ملاحقة هذا البطل إلاّ أنه ولفترة السنوات الأربع التي أعقبت سقوط الدرعية والتي ظلّ معظم السنة الأولى منها متخفياً في غارٍ بعيداً عن الأنظار - لم تغمضْ له عين ، ولم يطمئن له بال .. كان يغير ويناضل جاعلاً من حياة المحتل وكل متعاون معه قلقاً دائماً بالليل والنهار .

وَوَفْقَ إطار منهجية الرحلات في بذل الأساليب المؤدية إلى تحقيق الأهداف المرسومة لها فقد حرصت مع إخواني الأمراء (٢) على اختيار المجموعة المناسبة من الرفاق ممن اعتدنا

(١) عثمان بن بشر . **عنوان المجد في تاريخ نجد** ، ج٢ .- الرياض : دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ ، ص١١٠ ، وانظر سعود بن هذلول . **تاريخ ملوك آل سعود** ، الرياض ، ١٤٠٢هـ ، ص١٩ .

(٢) أبناء الأمير عبدالله الفيصل الفرحان - حفظه الله - فيصل، وفهد، وعبدالله، وعبدالرحمن، وسعد، وفواز وسعود .. وأبناء الأمير فهد الفيصل الفرحان (رحمه الله) : متعب وسعود .. ولفيف من الأصدقاء الأحباء .

على رفقتهم في السفر والترحال (والرفيق كما يقولون قبل الطريق) أو ممن استدعت الحال دعوتهم لمرافقتنا[1] .

بدأنا في المسير مساء يوم الأربعاء ليلة الخميس ٢٢ صفر ١٤٢٢هـ ، وتوقفنا للسلام ومن ثم العشاء والمبيت في ضيافة العم الأمير عبدالله الفيصل الفرحان بمزرعته في الخرج ، وفي اليوم التالي سلكنا طريق الهياثم فالضبيعة ، ومنها بدأ الطريق غير المعبد عبر الهضاب في جو امتزجت فيه حرارة الشمس مع دفء التاريخ .. إلى أن تقاطعنا مع طريق الردمية الممهد بدون إسفلت الذي يصل بين الحائر جنوب الرياض ، وبين غار الإمام تركي على مشارف الحوطة .. ولما كانت السيارات تزيد على العشر فقد آثرنا الإبقاء على بعضها عند هذه النقطة ، وبخاصة بعد تعطُّل بعض الإطارات من جراء وعورة الطريق في بعض أجزائه .. ثم واصلنا السير، ومررنا بأودية وشعاب ذات اليمين وذات الشمال، وقد أحسسنا أن الهضبة الصحراوية التي مررنا بها وما حولها تشعرنا بأنها كلها تمثل غاراً ومكمناً ، وليس مجرد الفجوة الصخرية داخل الجبل ، وهذا ربما مما زاد من مهابة المكان وحصانته .

وقد وصف أديبنا المؤرخ الرحالة الشيخ عبدالله ابن خميس هذه الهضبة المسماة "بالعلية" بأنها "أكبر هضبة في جبل اليمامة ، وأمنعها وأكثرها أودية وأشدها ارتفاعاً ، وتعد جزءاً من سلسلة جبل طويق ، إلا أنها مفصولة عنه من جهاتها الأربع بفجاج تجعلها تتربع وحدها ، وتشرف على ما حولها متأبية ساخرة" [2] .

وبعد حوالي ساعتين من السير وصلنا إلى مسالك الغار الذي يروي المؤرخون أنه الذي لاذ به الإمام تركي بعد إفلاته من بطش التركي (غبوش آغا) ، وقد لاحظنا كثرة

(١) وشارك أيضاً كل من : حزام بن معضد ابن خرصان شيخ آل شامر حفيد أحد الرجال الذين رافقوا تركي في نضاله ، ورفعان بن وحير بن مسعود آل شامر حفيد زوجة الإمام تركي هويدية الشامرية ، وغريب بن حزام رئيس مركز العين ، والأستاذ عبدالله الراشد مدير عام الآثار ، وغيرهم .

(٢) عبدالله ابن خميس . **معجم اليمامة** ، ج٢ ، الرياض ، ص١٧٥ .

التجاويف الصخرية في منحنيات تلك التلال .. ولعل أوضحها غاران متجاوران يفصل بينهما مسافة لا تتعدى ٥٠٠م .. قيل : إن أحدهما مأوى ليليٌّ والآخر مكمن نهاري للإمام تركي ، وقد كُتب على أحدهما عبارة : "غار الإمام تركي بن عبدالله" ، وهي كتابة تنسب لعمي الأمير محمد بن سعود الكبير - رحمه الله -، وعبارة مشابهة على الغار الآخر منسوبة لعمي الأمير متعب بن عبدالعزيز - حفظه الله - .. والغار الأخير يبدو لنا أنه أكثرُ حصانةً وملاذاً من الغار الأول ؛ مما يؤيدُ الترجيح بأنَّه ربما يكون هو الغار المقصود في الروايات التاريخية .. ولعل أبلغ وصف للغار هو للإمام تركي نفسه في قصيدة له رواها لنا حزام بن معضد بن خرصان يقول فيها :

علـى طريـق نايـفٍ فـي عليّـة   نزلت في غارٍ على الطرق كشّافْ
واخْـذت بـه وقـت ولـه قابليـة   طْويق غربْ وكاشفٍ كل الأطراف
في يد شجاعٍ ما تهبّي ضويـه   خويّـيَ الاجرب دوا كل حّـواف
وبشايـة الله مانهـاب المنيّـة   قطّـاع بتّـاعٍ ولا نـي بخـواف
ونعايـش الدنيـا ويقعـا صبيـة   وإذا ظربنا الدرب لا بد ننْشاف[1]

---

(١) اشتهر من شعر الإمام تركي رحمه الله قصيدته الرائية وروى له الشيخ منديل مقطوعتين في كتاب من آدابنا الشعبية ٦/١٥-١٦ هما قوله في الغار الذي في عليّة :

جلست في غار على الطرق كشاف   علـى طريـق نايـف فـي عليّـه
وطويق غرب وكاشف كل الأطـراف   وخذيـت بـه وقـت ولـه قابليـة
معي الخوي الأجرب على كل حـواف   في يـد شجـاع ما تهـبي ضويـه
قطـاع بتـاع ولانيـب خـواف   وبـدَبـرة الله مـا نهـابَ المنيـة
ولا من ضربنا الدرب بالفعل ننشاف   ونعايـس الدنيـا ويقعـا صبيـة

وله أيضاً قصايد لم تحفظ وذكر أنه معه رجل مرافق له يدعى المقيد وقد أصيبت رجله وقد قصد به منها هذه الأبيات :

رجلك علينا يا مقيد خسـارة   لعلهـا ماجـورة مـن سببهـا
يا طول ما شرفت في راس قـارة   والمحنذة كد هـو يولـم حطبهـا

دليل أنهم يصيدون من الصيد ويشونه بالمحنذة» .

نعم ما أجمل أن يكون وصف المكان ممن عايش المكان وافترش أرضه والتحف سماءه ؛ فوصفه بأنه (غار كشاف) و(نايفٍ) مرتفع يتلألأ فيه رفيق دربه وكفاحه سيفه (الأجرب) رمز الصمود والإباء .. وقد لا حظنا هناك أن وكالة الآثار قد باشرت تسوير الغار الأول ، وقيل إنّها ستبدأ بتسوير الآخر .. وقد أبدينا للأخوة مندوبي الوكالة بعض الملاحظات .. منها الإفراط في استخدام الإسمنت وأسلاك الحديد التي قد تُؤثّرُ على المشهد الطبيعي للغار ، ولو استُبْدِلَتْ هذه المواد بالأحجار الطبيعية الموجودة لأغنت عن استخدام المواد الحديثة المُصنّعة، إضافةً لضرورة وضع نبذة عن قصة الإمام في مكان مجاور للغار الذي يُرجَّح أنّه المقصود تاريخياً.

وفي المخيَّم الذي أقامه لنا الأخ فهد بن عبدالله الفيصل الفرحان الواقع على مشارف هوةٍ سحيقةٍ من مرتفعات جبل طويق الأشم المطل على شعيب "كنف" استمعنا لحديث الرواة عن قصة الإمام ، ولجوئه إلى الغار، وزواجه من هويدية الشامرية ، ثم انطلاقه لإعادة أمجاد دولته من يد الغزاة المعتدين ، وهنا في هذا المكان استعرضنا كتب التاريخ التي اصطحبناها وفي مقدمتها كتاب "عنوان المجد في تاريخ نجد" للمؤرخ عثمان ابن بشر؛ فلم نجد إشارة واضحة إلى الغار ، وإنما ذكر هذا المؤرخ المنطقة التي جلا إليها الإمام بقوله : "وكان رحمه الله لما أخذ إبراهيم باشا الدرعية هرب منها في الليل وقصد آل شامر المعروفين من عربان يام من العجمان ، وأقام عندهم ، وتزوج بنت رئيسهم غيدان بن جازع بن علي ؛ فولدت له ولداً أسماه جلوي ؛ لأنه ولد له في جلوته من بلده ، ثم إنه لم يزل ينتقل في العربان والبلدان"(١) .

ولو تتبعنا أسباب عدم ذكر اسم الغار لدى ابن بشر لوجدناه يعود فيما يبدو إلى

(١) نشأ الأمير جلوي مع أخيه الإمام فيصل بن تركي ، وتولى إمارة بلدة عنيزة في أيام حكمه خمس سنوات ، وتوفي عام ١٢٩٢هـ .. مثلما ذكر الأمير سعود بن هذلول في كتابه (تاريخ ملوك آل سعود) .

اكتفاء هذا المؤرخ بالإشارة إلى ذكر القوم القاطنين في المكان دون ذكر الهضبة التي يقطنونها والغار الذي لاذ به الإمام . أو أن قصة الغار بتفاصيلها لم تصل إلى أسماع ابن بشر باعتبارها من الروايات الشفوية التي تناقلتها الأفواه .. ويؤيد ذلك أن مؤلفاً متأخراً كان من مرافقي عمي الأمير محمد بن عبدالرحمن - رحمه الله - ، ومن ذوي الاهتمام بجمع الروايات بحكم مخالطته للرواة في مجالس أسرتنا وهو الأستاذ الأديب إبراهيم بن عبدالرحمن آل خميس قد ذكر في كتابه أسود آل سعود الرواية الآتية : "اتضح فيما بعد أن مأوى تركي كان مغارة في جبل (عليَّة) .. جبل صعب المسالك ، ومرتع للوعول ، خصب المرعى ، كثيف الأشجار ، كثير المغارات وملازم الماء ، وهذا الجبل يبعد عن الرياض ما يقارب ١٣٠ كيلو متراً ، وكان تركي ينطلق منه إلى الخرج ليلاً متنكراً في بعض الأحيان كعامل فلاح ؛ ليتلقى الأخبار من العمال .. وعلى ضوء ما يسمع يوجه ضربته .. و(عليَّة) منطقة لا يسكنها إلا قبيلة آل شامر ، ومن دواعي المصادفات أن يكون في فجر يوم من الأيام عائداً إلى مغارته ، وإذا بضوء النهار يسبقه قبل الصعود للجبل ، وتراه فتاة من قبيلة آل شامر اسمها هُوَيْدِيَة ترعى غنماً ، وحَكَمَ عليه الظرف أن يُحَدِّثها حتى لا تشعر أنه غريبٌ عن المنطقة ، والفتاة لا تعرفه ولم تسمْع عنه شيئاً .. إنها راعيةُ غنم ، وفي هذا المكان المنعزل عن الناس ولا يَهمُّها إلا رعْي غنمها .. واطمأنت الفتاة إلى حديثه ، وإلى سمات الرجولة والأصالة البادية على وجه ، وتوسّمت فيه الخير ؛ فما كان منها إلا أن تحلب من غنمها وتُسقيه بدون أن تسأله من يكون ، وبعد هذا اعتمدت أن تَسْرَحَ كل يوم لتُسْقِيه من حليب الغنم إذا رأته ولا تسأله عن هويته ، ولا عن عمله ، ولم تُبلّغ حتى أهلها عنه بشيئ، وبعد ما تم له الأمر بالنصر خطبها من أبيها وتزوجها ، وأنجب منها ابنه جلوي جد أسرة آل جلوي التي تعتبر من أكبر وأكرم الأسر حتى اليوم"(١) .

(١) إبراهيم عبدالرحمن آل خميس .- **أسود آل سعود** .- بيروت ، ١٩٧٢م ، ص٢١٣ .

وقد لاحظت فيما بعد أن منير العجلاني في كتابه عن الإمام تركي قد نقل من كتاب إبراهيم آل خميس الرواية نفسها ولكن بصورة تختلف عما ذكرته هنا ، وقد يعود السبب إلى اختلاف طبعة الكتاب أو إلى التصرف في النص من قبل العجلاني ؛ فقد ذكر الرواية على النحو الآتي : "وهنا حدثت لتركي قصة كأجمل قصص الحب الطهور ، فقد تأخر في نومه بالمغارة ، وخرج في النهار خلافاً لعادته ؛ فرأته فتاةٌ من القبيلة تدعى (هويدية) أدركت أنه غريب عن المنطقة ؛ فأحب تركي أن يُذهب عنها الخوف منه والشك فيه ؛ حتى تستمر في رعي غنمها آمنة مطمئنة ولا تخبر عنه ؛ فحدثها بلغة عشيرتها ، فاطمأنت إلى حديثه وإلى سمات الرجولة والأصالة البادية على وجهه وتوسمت فيه الخير ؛ فما كان منها إلا أن تحلب من غنمها وتسقيه كل يوم بدون أن تسأله من يكون ، وما عمله، ولم تُبلّغ حتى أهلها عنه .. وظاهر أن الفتَاة كانت ذكيةً وشريفةً ووسيمةً ؛ فلما هدأت الأمور قليلاً خطبها تركي من أبيها" (١) .

وهذا السياق يقتضي هذا التساؤل : ما هي حقيقة ما جرى في تلك الفترة ، ما هي حقائق الأمور التي يُمكنُ استقراؤها ، وهل كان تركي مجرّد هاربٍ من الموت ، أم أنّه كان يُكرُّ ويُخطّطُ ويعرف ماذا يفعل وكيف وأين يفعل ؟! .

لقد كانت الحالةُ في نجد سيئة بعد سقوط الدولة السعودية الأولى وكان كلُ شيء فيها يدعو إلى اليأس والقنوط : عاصمةٌ محروقة ، وعائلةٌ مكبلةٌ منفيّة ، وجيشٌ قاهر سَلب حرِّيّة الأهالي وحول بعضهم إلى أقراء يُباعون ويشترون .. كتب إبراهيم باشا لوالده محمد علي ما يلي: «إنّ قوّة الحضرة السلطانية وسمو طالعها قد جعلت هذه الجماعات في حالة بؤس ، ومع أنهم أصبحوا كالحفاة المتسكّعين : قد لا يزال من الضرورة العمل على استئصالهم جملة ، وبتر أكتافهم ؛ لأنهم عروق فساد» .. كما لم تنجُ المنطقة من حالة الكساد

(١) منير العجلاني . **الإمام تركي بن عبدالله بطل نجد ومحررها** .- الرياض ، ١٤١٠هـ ، ص٦٥ .

الاقتصادي العام ؛ مما حدا ببعض السكان إلى أكل الخشب كما تقول بعض الروايات، ولم تنجُ أيضاً من السلب الثقافي بمصادرة الكتب العلمية والمصاحف ، وتشير الوثائق العثمانية إلى أنّ إبراهيم باشا أحضر معه من الدرعية ما مجموعه (٥٩١) مجلداً علمياً[١] .

وكانت كل الدلائل تشيرُ إلى ملامحَ مستقبلٍ قاتمٍ بالنسبة لدعوة التوحيد في جزيرة العرب ، ولكن ولحكمة من الله تعالى تمكن تركي بن عبدالله من الإفلات من هذا كله بعد أن خاض صراعاً مريراً وغيرَ متكافئٍ في الدفاع عن عاصمة آبائه وأجداده مع بقية السيوف من تلك الأسرة وأعوانها ؛ "فقد كان روح الدفاع عن الدرعية" ، كما وصفه فيلبي. استشهد ولده فهد وأخواه محمد وسعود ، وكأنهم يقولون لإبراهيم باشا .. إنْ استطعت أن تمنعنا عن عيشٍ كريم فلن تستطيع حرْماننا من اختيار موت كريم .

وأفلت تركي وأخوه زيد من مصير محتوم ؛ ليكونوا أسوأ أحلام إبراهيم باشا الذي لم يدرِ - بادئ ذي بدء - أنه قد ترك ذِئْباً جريحاً ، وكان هذا هو خطأه القاتل الذي كلّفه غالياً .. كان إبراهيم باشا يبحثُ عن "نيشان" جديد ، وفاته أن تركي كان يتحرق إلى تحرير وطن وإعادةِ مُلْكٍ سليب ، فهل كان محمد علي يخدع نفسه ؟!.. انسحب تركي إلى قلب باديته التي أحبته وأحبّها مُراهِناً على عُمقه الإستراتيجي وعلى عدائيَّة الأرض لذلك المحتل ، وهكذا كانت الرحم الذي سيشهدُ مخاض الدولة الجديدة .. يقول الشيخ عبدالرزاق البيطار في كتابه حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، "كان تركي رجلاً شهماً ، مشهوراً ، مِقْداماً ، عارفاً بمواقع الحروب ، انفلت من يد إبراهيم باشا وغاب عنه ، ولم يقع له بعد التفتيش على خبر ؛ فتركه وتوجه بابن سعود وعائلته إلى مصر وعساكر المصريين تبحثُ عنه من كل جانب" [٢] .

---

(١) خليفة عبدالرحمن المسعود . موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية ، **رسالة دكتوراه** ، جامعة أم القرى ، ص٧٣ - ٧٤ .

(٢) نقلاً عن منير العجلاني . **الإمام تركي بن عبدالله** ، ص٢٤٥.

عاش تركي في بيئةٍ جديدةٍ من إرثه واختياره ، وقد أبى أن يستكين للذل أو يقبلَ بأي راحةٍ في حضن المحتل .. يقول محمد علي في رسالةٍ بعث بها إلى السلطان العثماني[1] : "إن تركي وهو من البقية الباقية من آل سعود ، رجل عنيف ، عنيد ، وثائر مُتمرّد ، ولا يُمكنُ الركون إليه .. وإذا كان تركي مخلصاً لنا حقاً ويريد صداقتنا فما عليه إلا أن يحضر إلى مصر ويقيم فيها مُدّةً من الزمن ، ويُشاهدُ عظمة الدولة العلّية .. وبعد ذلك نستطيع القول أنه أصبح صديقاً لنا".. ولكن كيف يقبلُ تركي ذلك وفي ذاكرته لا يزالُ مشهد تدمير وحرق دار الآباء والأجداد ماثلاً لا يفارق خياله ؟!.. كان الموتُ ماثلاً أمامهُ في كل وقت ؛ فلا أمان مع هؤلاء .. غير أن تركي كان من نوعية الرجال الذين تصقلهم الصعاب ، وتفجر فيهم طاقات الإبداع ؛ فيخرقون المنطق البسيط ، ويستشرفون آفاق الأمل بوحيٍ من الشعور الإيماني العميق ، والاعتماد الصادق على أصالة وعراقة نادرتين في شعبه .. أصالة كان تركي يفهمها فهماً خاصاً ؛ فبدأ يعمل على ترتيب صفوفه ولم شعثه حريصاً في الوقت نفسه على أن لا يدع فرصة للاستقرار أو الراحة لذلك المحتل ، ولا مجالاً للاطمئنان لكل من تعاون معه .. وهذا نص لرسالة له إلى العسكر الترك الذين حاصرهم في إحدى غاراته على الرياض أورده ابن بشر حيث يقول : "إني قادر على إتلافكم ؛ لأن أهل نجد معي عليكم ، وإن أردتم المسالمة نزملكم ونحفظكم إلى أن تصلوا للمدينة ، فإن أبيتم فلا عندنا لكم إلا القتل ، وأنا رجل إن أتاني العسكر لجأت إلى الجبل الذي لا تعرفونه ولا تفهمونه .. أكمن فيه النهار وأغير الليل ، استسلموا تسلموا".

وكان يبعث برسائل إلى شعبه أدت مفعولها ومنها هذا النموذج الذي يقول فيه : «إني موجود معكم ، ولن أنس هذه الأرض ولا هذا الشعب" .. كان منهم ومنها ، وكان

(١) المرجع السابق ، ص٣٨ .

الآخر غريباً عنهم وعنها ، وكان كل ذلك غائباً عن حسابات الأتراك .

وكأن التاريخ يعيد في تركي ملحمة صقر قريش عبدالرحمن الداخل الذي تكالبت عليه الدولة العباسية من كل جانب ، وأرسلت فرق القتل لكل أرجاء بلاد العرب للقبض عليه وإلحاقه بأبناء عمومته المقتولين في أثناء سقوط خلافة آل مروان . ولكن كعادة الأبطال لم ييأس ، ولم تستطع قسوة الحدث من أن تثنيه عن مراده ، بل ظلت هامته شامخة وإرادته راسخة .. ظل متخفياً ومشهد مقتل أبناء عمومته لا يزال حاضراً أمام عينيه .. ولكنه الهدف السامي .. هدف يفوق كل تصور .. هدف يسمو بالروح ويطهرها من كل الأدناس وكأن لسان حاله يقول :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجـــــوم

أجل أجل فمن صبر فلا بد أن يصل ، وها هي دولة بني أمية تتأسس من جديد في بلاد الوندال ، وقد خلدها التاريخ محاطة بأجمل المعاني الخالدة ، واستخلص من سيرتها وسيرة مؤسسها الفذ أسمى العبر .

ومن وقائع الإمام تركي المشهورة تلك المغامرة التي أشار إليها منير العجلاني في كتابه «الإمام تركي بطل نجد ومحررها» عندما دخل قرية عرقة ليلاً منفرداً لا يحمل سوى بندقيته سحابة وسيفه الأجرب .. توجه إلى الجامع يدخله قبل المصلين القادمين لصلاة الفجر ، ويختبئ في أحد أركانه ، وبعد أن أدى المصلون صلاة الفجر إذا بأمير عرقة المعين من الأتراك يخطب بالمصلين ؛ فيحذرهم من "ثعلب مجاري السيل" !!.. ويعني بذلك تركي، وينبههم إلى أنه في هذه النواحي ، ويؤكد عليهم بوجوب الاحتياط منه .. ولم يكد الأمير ينتهي من تحذيره حتى قفز تركي إلى أمامه من زاوية مظلمة في المسجد شاهراً سيفه ، قائلاً بصوت جهوري قاطع : "أنا هنا يا خائفاً مني" ، ثم هجم على الأمير الذي

أذهلته المفاجأة فلم يستطع أن يحرك ساكناً ؛ ليقتله أمام الجميع الغارقين في ذهولهم ، وقد أفقدهم الرعب القدرة على الحركة ، ثم اختفى تركي كما ظهر .

وكأن كلمات الإمام عبدالله بن سعود في رده على سؤال إبراهيم باشا له عند دخول عبدالله معسكره إبان حصار الدرعية لا يزال وقعها حياً في وجدان تركي .. قال إبراهيم في صلف وكبرياء : "ما رأيك يا عبدالله في قوتنا ؟!" ؟.. فأجابه عبدالله : "أنت قوي يا إبراهيم ، وأبوك محمد علي أقوى منك ، والسلطان محمود أقوى منكما .. ولكن الله أقوى منكم جميعاً" .. وها هو تركي الذي منحه الله قوة في قلبه ولسانه وبارك في عمله، وأينما ذهب كانت أعماله تدل على نيته الخالصة لوجه الله تعالى .

يثبت الإمام تركي للأجيال من بعده أهمية أن تكون هيبة الحكم مستمدة من العدل، وعندما لا يتعدى القول المساحة الممكنة للفعل يكتسب عندها القائد مصداقيته الوطنية وتقوم الدول وتدوم .. أورد ابن بشر رسالة لتركي إلى عماله نصها : "اسمعوا يا أمراء البلدان : إياكم وظلم الرعايا والأخذ منهم بغير حق ، وإذا ورد عليكم أمري هذا وصرتم كراصد النخل يفرح بشدة الريح ، ليكثر الساقط عليه: فاعلموا أني لا أبيح لكم أن تأخذوا من الرعايا كثيراً أو قليلاً : فمن حدث منه ظلم ، أو تعدى على رعيته بغير حق فليس أدبه عَزْله ، بل أجليه عن وطنه وأهله" .

ربما لا يماثل عبقرية تركي في إدارة الأحداث لتحقيق التحرير إلا عبقريته في بناء الدولة الجديدة ، على أسس راسخة من العدل ، وذلك من منطلق علمه أن الممالك القوية الناجحة لا تقوم ولا تدوم إلا بسياج من العدل يصبح جزءاً من فلسفة القائد ، وما أروعها حينما تلتقي عبقرية التحرير وعبقرية البناء ؛ ليشكلا نقطة وضاءة في تاريخ أية أمة !! .

ولعل وندربيل قد لخص ذلك في كتابه «السعودية في القرن التاسع عشر» بقوله : "كان تركي حاكماً صالحاً في زمانه ، عادلاً رفيقاً برعيته ، حريصاً على الصالح العام ، ولكنه كان يملك من الصفات ما يؤهله لأن يكون حاكماً في أي زمان ومكان" .. ويقول ابن بشر : "كان اليتامى من كل بلد عنده ، يتولى إلباسهم وكسوتهم بيده ، ولا يُقدَّم الطعام لهم إلا بحضرته" .. إن تركي لم يكن مجرد زعيم محلي بمواصفات الزعامة العشائرية فقط ، بل كان صاحب رسالة وهدف سام ، صاحب مقدرة فذة وشخصية قيادية نادرة في زمانه تمكنت تحت مظلة إيمانه النقي من تحليل الأحداث وقراءتها قراءة واعية ، وعلى توظيف الإمكانيات القليلة للوصول للهدف السامي المنشود .. ألا وهو تحرير أمته من براثن الاحتلال ، وإعادة الكرامة لأبناء شعبه ، ثم إعادة ملك آبائه وأجداده المسلوب .

لم أكن أدري أني بعد تلك الرحلة سأجد ذلك الأثر الوجداني بعد أن تهيأت الفرصة؛ لأكتشف ملامح تلك التجربة التي عاشها وعاناها الإمام تركي بن عبدالله ، فهل كان ذلك بسبب التواصل المكاني ، أم بسبب أواصر الدم التي شكلت مجموعة الأحاسيس، أم بمحاولات التعرض لمؤشر مجهول أثار كل ذلك ؟.. الحقيقة أنني لا أعرف ! .

كان الصمت بليغاً في طريق العودة ، ولكنني شعرت أن في نفوسنا جميعاً تجليات وقراءات صامتة .. في البداية ربما كان المؤثر أن الإمام تركي جدنا أنا وإخواني الأمراء ، وربما كان ذهابنا بوحي من هذا التواصل العاطفي أو بعض الفضول العلمي أو كليهما .. لست أدري !!.. وعند العودة شعرت بشيء غريب هو مزيج من الخجل والسعادة .. خجلت لأنني كنت أحسب أن تركي هو جد أسرتنا فقط ، وسعيداً لأنني قرأت في عيون الجميع أنه كان جدهم كلهم ، وأن لهم في تركي مثلما لنا ، ولأنه شخصية تاريخية فذة أكبر من أن نحجمه بصفته جداً لنا وحدنا .

لقد كان حالماً عظيماً ذا همة وصبر عظيمين مكّناه من نقل الحلم إلى حقيقة ، وهذه هي رسالته التي قرأتها في أجواء معقله الأشم ، وشعرت أنه تركها لنا لكي نكتشفها ؛ ولكي نفهم أنه لا يكفي أن نقرأ التاريخ بل ينبغي أن نعمل على شرف محاولة صنع التاريخ .. لقد أراد منا أن نكون رجالاً حقيقيين نحمل مسؤولية هذا الإرث العظيم ، وليس فقد استهلاك ذلك الإرث أو قطف ثماره .

رحمة الله عليك أيها القائد البطل ؛ فإنك لم تكن لتحتل هذه المكانة في نفوس شعبك لولا خدمتك المخلصة المتفانية لهم ، ولولا شعورك بالمسؤولية تجاههم ، وصبرك وتحملك ما لا يتحمله سوى أفذاذ الرجال .. وإن ما شعرنا به بعد أن قرأنا وسمعنا عنك من خصال ، وتحلّيك بالشجاعة والحكمة والحنو على شعبك : لهي رسائل تصلنا اليوم على الرغم من السنين الطوال التي تفصل بيننا وبينك أيها الفارس .. وإن بيئة هذه سماتها هي بلا شك بيئة معطاءة ؛ لأنها هي التي أنجبتك ، وأنجبت بعدك حفيدك صقر الجزيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن مؤسس دولتنا - رحمه الله - .. ولعل من أبلغ العبر المستوحاة من سيرتك العطرة أنه لكي نستحق شرف الانتساب إليك يجب أن نتمثل شخصيتك ، ونعتبر من مواقفك في سلوكنا ، فهكذا تخلد السير العطرة .

لقد كانت رحلة طويلة عبر الزمان والمكان وسارت بنا إلى داخل الأعماق رحلة شعرت بعدها أنني أصبحت أكثر فهماً لجزء مهم من شخصية وكيان هذا الوطن .. إنها رحلة في أعماق الذات "أشد مناطق الدنيا وعورة"(١) .

(١) قال أبو عبدالرحمن : يعرف قارئ التاريخ المحلي الإمام تركي بن عبدالله على أنه شجاع ، وذو سياسة تليق بمجتمع رعيته العام في نجد ، ولكنني في كتابي عن الإمام سعود بن فيصل وجدت في الوثائق وتاريخ السواحل أن الإمام تركياً ذو عقلية سياسية جبارة فذة ، وذو أفق واسع في تثبيته حبل الولاء له في تلك الجهات ، وفي تعامله مع القوى خارج نفوذه .





غار الإمام تركي بن عبدالله آل سعود

مصادر ومراجع البحث

١ - **أسود آل سعود** . إبراهيم عبدالرحمن آل خميس ٠- بيروت ، ١٩٧٢م ، ص٢١٣.

٢ - **الإمام تركي بن عبدالله بطل نجد ومحررها** . منير العجلاني ٠- الرياض ، ١٤١٠هـ ص٦٥ .

٣ - **تاريخ ملوك آل سعود** . سعود بن هذلول ٠- الرياض ، ١٤٠٢هـ، ص١٩.

٤ - **الرحلات وأعلامها في الأدب السعودي** . محمود رداوي ٠- الرياض ، ١٤١٦هـ ، ص١٩ -٢٠ .

٥ - **عنوان المجد في تاريخ نجد** ج٢ . دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ، ص١١ .

٦ - **معجم اليمامة** ج٢ . عبدالله ابن خميس ٠- الرياض ، ص١٧٥.

٧ - **موقف القوى المناوئة من الدولة السعودية الثانية** . خليفة عبدالرحمن المسعود ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، ص٧٣-٧٤ .